الهوية واشكالية الانتماء في الرواية العربية

د. تغريد عبد الخالق هادي
جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية
Taghreedhadi7@gmail.com

المخلص:

إن ثيمة الانتماء في الرواية العربية هي ثيمة متنوعة الأطراف والجوانب ويؤسس لها تاريخ شعب بأكمله ... فهي نتيجة لظروف قياسية واجتماعية واقتصادية اثرت في المجتمعات العربية ودفعت بها نحو الامتزاج او الذوبان مع مجتمعات أخرى خلّفت على أثرها إشكالية في الهوية الوطنية لدى الفرد العربي. وقد عالج البحث المشكلة من خلال النصوص الروائية المطروحة موضوع المناقشة مع الوقوف على نماذج الأوطان الطاردة لأبنائها بفعل الظروف الواقعة تحت ضغطها، على العكس من الأوطان الجاذبة للوافدين من جنسيات اخر. وقد خلص البحث إلى أن ضياع هوية الانتماء للأوطان هو سبب غياب الوعي المجتمعي لدى الفرد الذي يعزز انتمائه لأرضه ومكوناته.

Identity and problematic affiliation in the Arab novel

Dr.. Taghreed Abdul Khalek Hadi
University of Baghdad / College of Education Ibn Rushd for Humanities

Abstract:

The affiliation main point in the Arab novel value, is a variety of different aspects and establishes a history of an entire people , they are the result of standard conditions, social and economic affected in Arab societies and pushed out towards the mixing or melt with other communities left on the impact of the problem in the national identity of the Arab individual .The research deal with the problem through the narrative texts raised the subject of discussion with the stand on homelands repellant models for their sons because of the circumstances and the pressure, on the contrary homelands attracting entrants from last nationalities. The research concluded that the main reason to loss of the identity of belonging to the homelands is the lack of community awareness of the individual which promotes belonging to his land and its components.

المقدمة:

إن تحقق الهوية الوطنية وخسران الانتماء من عدمه وضع النقد العربي امام اشكالية فنية في النصوص الروائية المطروحة بفعل الازمات التي تمر بها دول العالم الثالث وسيطرة العولمة وهيمنة الاخر على مجمل معطيات الدول النامية. وإن الازمة الفكرية للفرد العربي انتجت نصوصا ولدت من رحم الواقع وازمة الافراد في اوطانهم الام ،وصراع الحضارات ،فاضحت مفاهيم مثل (اللغة العربية ،الدين ،المصير الواحد) مفاهيم مجوفة لا تحقق الانتماء داخل الوطن ،فاصبح الفرد يعاني من الاغتراب داخل ارضه ،واصبح الوطن طاردا لأبنائه بعد ان توفر البديل بالهجرة الى العالم الاخر، المأزوم .

وقد سلط البحث الضوء على عدد من النصوص المعروفة والفائزة بجائزة البوكر للرواية العربية وكان ابرزها :

• رواية (يامريم) للروائي العراقي (غسان انطوان) والتي رشحت للقائمة القصيرة لجائزة البوكر (٢٠١٣) و يطرح فيها الروائي مشكلة الاغتراب داخل الوطن ولاسيما في شريحة مهمة وواسعة من المجتمع العراقي هي العوائل المهجرة التي عصفت بها الحروب والويلات واصبحت بلا مأوى وينهج في بناء الرواية نهجا للبناء السردي الموازي للاحداث ،فيعقد مقابلة (بالتأكيد على ثيمة الانتماء داخل النص) مع حالة عائلة مسيحية هاجر معظم ابنائها ماخلا الاب الذي بقى وفيا لوطن احتضنه والتأكيد على فكرة الاثنيات المتنوعة داخل المجتمع الواحد .

• رواية (ساق البامبو) للروائي الكويتي سعد السنعوسي، الحائزة على جائزة البوكر لعام (٢٠١٣) ويطرح فيها فكرة نبذ الوطن لابنائه بحسب توجهاتهم السياسية والفكرية ومن ذلك شريحة (البدون) الذين يعيشون بلا اثبات للهوية على هامش الوطن مما ادى الى فقدانهم للانتماء الحقيقي.

فضلا عن ذلك يعري مأساة الابناء المولودون من الزواج باجنبيات وضياعهم بين اوطان عدة، بين وطن طارد ووطن بديل ..

• رواية (سمراويت) للكاتب الارتيري (حجي جابر) والتي نالت جائزة الشارقة للابداع العربي (٢٠١٢) والتي تتحدث عن قصة بطلها عمر وهو يبحث عن ذاته في وطنه الام ارتيريا ومن قلب العاصمة اسمر لنعيش جدلية الغربة والانتماء التي يعيشها البطل في لملمة شتاته المصيري بين واقع متشظ ووطن مآزوم.

اشكالية الهوية والانتماء:

مع حلول القرن العشرين ودخول الاستعمار الغربي الى البلدان العربية واحتلالها اصبح من الضروري التأكيد على الهوية العربية والقومية للبلد للمحافظة على اصالة المجتمع بعد أن اجتاحته

موجات الغزو المختلفة من احتلال (فرنسي، بريطاني، ايطالي، اسباني، الخ) مما ادى بالمجتمع الى التفتت ولا سيما مع موجات الانفتاح الحضاري والتكنلوجي التي رافقت مجيء الاستعمار .
فانقسمت الآراء بين رأي مؤيد لهذه الافكار حتى رأت هذه الجماعة ان لا بأس من تبني القوالب الجاهزة للدول الغربية وتطبيقها على بلدانهم في كل شيء بادعاء على انها من ظاهرة الحضارة.

أما الرأي الثاني وهو الرأي المحافظ؛ فيرى ان كل بلد عربي له طابع خاص وتراث وتاريخ وحضارة وعادات وتقاليد وقيمه التي يجب الحفاظ عليها؛ لذا اصبح هنالك تبلورا في الحس الوطني تجاه الهوية الوطنية والتي تعبر عن الانتماء لهذا الوطن بحيثياته كافه...ان التجربة العربية في البحث عن الهوية واثباتها وتعزيزها في نفوس مواطنيها هي تجربة ثورية كان الهدف من ورائها طرد الاستعمار من اراضيها .. ولم تؤسس هذه البلدان لثيمة الانتماء الوطني الذي هو جزء من مكونات الهوية الوطنية القومية، فأصبح الفرد في عزلة عن مجتمعه وناقم على احوال البلد الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية في بعض الاحيان.

وعندما نقف عند التجربة الغربية نجد أن هناك تجارب ناجحة في تعزيز الهوية وبلورتها وذلك بوصفها تجربة سياسية واقتصادية وحدودية تبحث من خلالها بلدان العالم عن العوامل المشتركة التي تجمعها على العكس من البلدان العربية التي تنكص نحو الماضي لتؤسس لمظاهر العنف والتطرف والتفرقة..

ويمكن الوقوف عند النماذج من هذه التجربة الغربية لتوحيد مفهوم الهوية في بلدانها وتعزيزه بما يخدم مستقبلها فعلى سبيل المثال (نجد الأنموذج الالماني الذي استرجعت المانيا وحدتها وبتضحيات كبيرة، كما أن نموذج الاتحاد الاوربي الناشئ هو بصدد التحول من تعبير رمزي الى حقيقه قائمة)[١] وهذه التجارب لم يكن ليكتب لها النجاح لو لا تعزيز مفهوم الانتماء لهوية معينة لدى افرادها كما بث روح الوحدة وتعزيزها في النظم الاجتماعية والاقتصادية وازالة الفوارق الطبقية التي تقسم النوع البشري الى طبقات بحسب الجنس واللون والعرق وغيرها مما جنب هذة الدول الدخول في صراعات داخلية بين افرادها سواء كانت مذهبية أو عرقية أو قومية.
وقد تسهم الكوارث والحوادث التي تلم بالبلد ولا سيما الحروب في تعزيز الهوية الوطنية وحس الانتماء للوطن في الازمات التي تلحق بأفراده كافة لذا يصبح مفهوم التوحد ونبذ الفرقة ضرورة وطنية ملحة..

وابلغ مثال على ذلك كتفجير برجيّ التجارة العالمية في الولايات المتحدة اذ (أسهمت احداث "١١ سبتمبر في اثبات حس هوياتي لدى الأمريكيين وفي تنامي الشعور بالانتماء الى أمة تتوفر على مقومات الوجود)[٢]

ويمكن الاستشهاد على الحس الوطني والهوية الوطنية لدى العراقيين بوقوفهم ضد هجمات عصابات (داعش) الارهابية مما بلور حس الانتماء الوطني لديهم وتجاوزهم كل خلافاتهم الطائفية والدينية وتأسيس قوات (الحشد الشعبي) المدافع عن حياض الوطن الذي تأسس بفعل نهضة وطنية شملت كل فئات المجتمع العراقي بكل اطيافه (مسلمين، ومسيح، وايزيدين، وشبك، وغيرهم) وذلك تجسيدا لدعوة المرجعية الرشيدة .

م١/ ضياع الهوية – ازمة الذات الضائعة:

عند استقرائنا للنتاج الروائي العربي نجد ان الرواية العربية عمدت الى تصوير الذات الفردية للمواطن العربي تجاه وطنه والاخر (المنفى) ، ولاسيما في فترة ما بعد الاحتلال للبلدان العربية، على انها ذات متشظية وغير منتظمة وتعاني من ازمات نفسية وانتمائية تجاه الوطن ولاسيما بعد التداخل الحاصل بين الشعوب العربية والبلدان الغربية بفعل الهجرة السلبية نحو الغرب ، لما يوفره الاخر من امان مادي ومعنوي ، وانفتاح فكري غير مسبوق بمثيل له في البلدان العربية ولاسيما في فترات الحكم الدكتاتوري الذي سبق ثورات الربيع العربي ، مما جعل الاهتمام ينصب نحو النتاج الادبي ولاسيما الادب الروائي بوصفه وعاءً فضاضا للحرية الفكرية، اذ يقول كونديرا: **(دفعت فكرة الصراع هذه الشعوب الى تجريب هويتها من خلال معادل موضوعي تحرر فيه طاقاتها الكامنة التي تتطلع الى تحقيق وجودها)**[٣]

لذا قد اسهم الادب في التعبير عن ازمة الفرد الفكرية السياسية وبيان ضياعه المعنوي في وطنه. وقد يكون الادب بصورة عامة اداةً للتغيير بين الشعوب ومحاولة لملمة شتاتها وتشظيها في فكرة وحدودية تدعو الى الثورة ولو تلميحا او رمزا ولعل اكثر الوسائل شعبية وتواصلية مع الاخر هو المسرح اذ يقول بريخت **(نحتاج الى مسرح لا يقتصر على مجرد اتاحة المشاعر، والمعارف، والدوافع التي نشرح بها في مجال العلاقات الانسانية التي تجري الاحداث، ولكننا نحتاج الى مسرح يستغل الافكار وينتجها حتى تلعب هي نفسها في تغيير العالم ...)**[٤] وهذا ما يفسر لنا منع العديد من الاعمال الفنية (الروائية أو المسرحية) من التداول والعرض في البلدان التي تعاني من ضياع هوية وازمات داخلية.

ولعل ابرز عوامل ازمة الذات الضائعة العربية هي تداخل مفاهيم عدة ابرزها:

١- الهوية والدين:

إن الموقف القلق ما بين الهوية والدين هو نفسة القلق الذي يفرض نفسه بين الانتماء للوطن وعدم الانتماء بحسب الموقع الذي يقف فيه الفرد من الآخر (المنفى) ولاسيما اذا كان الدين احد المؤثرات في عملية التغيير. فالعلاقة بين الهوية والدين **(تعبر عن الحقيقة المطلقة ، اذ ان المنطق الداخلي المؤسس لهما يجعلهما يقدمان انفسهما كمعطيات ما فوق تاريخية، كماهيات لا**

تتغير بتغير الازمة والامكنة انهما يحيلان على عقيدة ثابتة وعلى شعور قوي بالامتياز والتفوق)[٥]. فالفرد العربي بطبيعته الفطرية لديه انجذاب نحو المعطيات الدينية اكثر من غيره من الافراد في الشعوب الاخرى مما يؤثر على انتمائه وسلوكه ومعتقداته وبالتالي على تكوين شخصيته فكم من الشعوب العربية عصفت بها الخلافات المذهبية بين افرادها وتبنى جماعات من افرادها لهذه الافكار مما اسهم في تشكيل اقطاب مقاومة ضد السلطة.

فالذات العربية ميالة نجو التجمع في مجموعات ذات اهداف معينة وهنا يغدو الدين هوية للفرد ويصبح انتمائه للوطن او المكان الذي يحتويه، ولعل مقولة: (ريجيه ديبراي) تعبر بشكل دقيق عن هذة العلاقة؛ اذ إنه يقول **(الدين ليس افيون الشعوب بل فيتامين الضعفاء)** ولعل الفن الروائي عبر عن هذه الفكرة اصدق تعبير بتصويره للطبقة الفقيرة من المجتمع ولجوؤها الى الدين ولاسيما للحركات الصوفية للتعبير عن ذاتها الضائعة فوجدتها وسيلة لاستخراج مكونات نفسها مثل (الدراويش والزهاد).

ولقد ظهرت عدة امثلة روائية على هذا النوع من العلائق مثل روايات نجيب محفوظ (الحرافيش) ورواية (شوق الدراويش) لـ(حمورّ زيادة) ورواية (مجنون زينب) لـ(جمعة اللامي)... وغيرها

٢- الهوية والسياسة:

عادة مات رتبط الهوية بالتيارات السياسية التي تحكم الاوطان ، فغالبا ما تؤثر السياسة بالاتجاه الوطني والقومي للبلد والافراد وعلى الاخص في اوقات نشوب النزاعات والحروب فتصبح العلاقة مابين الاثنين وطيدة وحاضرة .. ولدينا في العالم العربي امثلة من تاريخنا المعاصر للسياسات الحاكمة وتأثيرها ما بين الدول وانعكاسها على الافراد بالضرورة ، ولقد وقف الادب الروائي على مسافة قريبة في تصويره لهذا الواقع فظهرت روايات تؤرخ لهذه الحقبة مثل (شرق المتوسط) و (ذاكرة الجسد) وغيرها.. وعلى سبيل المثال (الحرب المصرية الاسرائيلية) وانتصار المصريين فيها عدّ انتصاراً للسياسة والدين والوطن..

ولدينا مثال حي من الواقع العراقي وتأثير السياسة من خلال ضم العراق لاثنيات مختلفة الطوائف مسلمة وغير مسلمة وقوميات عدة من (اكراد، تركمان، عرب) وتأثير السياسة في الهوية الوطنية والقومية لكل طائفة من طوائف المجتمع .. ولعل رواية (يامريم) قد صورت هذة التنوع الطائفي والديني في العراق وتأثيره بالأحداث السياسية التي مر بها البلد . ونزوح عدد كبير من العوائل الى الخارج ، فعلاقة الانتماء للوطن مرتبطة بالسياسة الجاذبة او الطاردة لأفراده ، لذا اصبح الفرد العربي في ازمة مع نفسه اولا والواقع السياسي والاجتماعي والديني ثانيا.

م/٢ ثنائية (الغربة، الانتماء) في الوطن:

إن الغربة والاغتراب من المصطلحات الشائعة في الادب ولا سيما الروائي منه ويشير الاغتراب **(في سياق دلالته اللغوية الى معنى الغربة التي تعني ببساطة النزوح عن الوطن. لكن الاستقراء التاريخي لمسيرة هذه الكلمة عبر المراحل التاريخية المتعددة التي شهدت انتقالها من حقل اللاهوت والفلسفة الى حقل العلوم الانسانية والاجتماعية يومئ بالتطورات الدلالية التي عرفتها، بدءا من دلالة الانتقال، من المكان او الانفصال عنه، وانتهاء بدلالة العزلة والانسلاخ وعدم القدرة على الاندماج في المجتمع اي بكلمة واحدة الاغتراب بوصفه مقابلا سلبيا للانتماء)**[٦].

فالغربة والاغتراب سمة بارزة في الرواية العربية ولا سيما في النصوص التي تعالج ازمة المثقف العربي مع ذاته ومع مشكلات عصره وقد يتداخل المصطلح مع مصطلح (اللامنتمي) الذي راج في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي بحكم ترجمة د. انيس زكي حسن لكتاب (كولن ويلسن) الذي يحمل عنوان (The Qutsider) كمصطلح نقدي ودلالة ادبية على المعنى. وبعد ذلك ظهرت دراسات نقدية وادبية تعنى بهذا المفهوم مثل كتاب (المنتمي في ادب نجيب محفوظ) لـ (غالي شكري) وتوسعت الدراسات النقدية لهذا المفهوم المرادف لمصطلح الاغتراب حتى غدا ظاهرة في الادب العربي.

نلمح ثنائية (الغربة، الانتماء) في الرواية العربية في رواية (سياق البامبو) للروائي الكويتي (سعود السنعوسي) فنقف عند بنية العنوان التي تعني (اللاجذور) و (اللاانتماء) كساق البامبو اذ يقدم شخصية (عيسى الطاروف) او (هويزيه) الشاب الكويتي من ام فليبينية والذي يقرر العودة الى الوطن تحت ضغط والدته الفلبينية ليواجه حقيقة (الوطن الطارد) لأبنائه فقط بسبب انتمائهم لطائفة او لعرق آخر، فيواجه بوطن لا ينتمي اليه الا بالأوراق الثبوتية فقط.

فالغربة داخل الوطن تتضاعف مع نبذ عائلته له، ويصور الكاتب من خلال بطله مشاكل المجتمع الخليجي ولا سيما مع الاجانب وبالأخص الايدي العاملة الوافدة الى البلد ويصور البطل رد فعل العائلة على مجيئه الى البيت حيث يعيش والده ويطلع على الرواية التي كتبها والده قبل وفاته.

(من دون ان تلتفت اليّ، أشارت بسبابتها الى الباب الخلفي المفضي الى المرآب، خذ ابنك واخرج من هنا، صعقت لتبدل مزاجها.. (امي) رفعت صوتي متجاوزا بكاء عيسى، أردفت " ارجوك" تقدمت نحو الباب الخلفي فتحته وقالت مشددة على كلماتها " اخرج الآن" ثم اشارت نحو الصغير، واياك ان تحضر هذا الشيء الى هنا[٧]**).**

إن فكرة (النبذ) المسيطرة على ذهن البطل هي فكرة محورية والتي تجعل منه ضحية تسقط في منطقة الفراغ بين (القبول والرفض) من قبل الاخر. الا ان فكرة النبذ متجسدة حتى في المفردات التي اطلقت على البطل (شيء) وكأنه نكرة بشرية ليس لها جذور في هذه العائلة منذ الولادة لا

لشيء الا بسبب والدته الاجنبية (الفليبينية) وابيه الكويتي، ويشكل (الوجه) للبطل مأساة حقيقية في الكويت: اذ يعاني من شبهه لوالدته، إلا أن الضياع الحقيقي هو عند احساس البطل بعدم الانتماء لوطن لا يعرفه على الرغم من اصالته.

(حين عدت الى بلاد أبي وجدتهم متورطين بي، يريدونني ولا يريدونني بعضهم سعيد بعودتي، بعضهم في حيرة، والبعض يطلب تسوية الامر مادياً ويطلب مني العودة " الى بلاد امك" وانا اقف على ارض لست اعرفها، باحثا عن ارض تأويني بين بلاد ابي وبلاد امي)[٨].

إن الاوطان الطاردة في الادب العربي لم تصور من مخيلة الكاتب فحسب بل جاءت كمعالجة لقضايا المجتمع العربي وهنا (المجتمع الكويتي) بتفاصيله المعقدة وتصوير الفوارق الطبقية بين افراده (المواطنون او الاجانب) وتصوير الاغتراب وعدم الانتماء بين افراده حتى ولو كانوا يحملون نفس الاوراق الثبوتية التي تؤكد انتمائهم لوطن واحد، فطاقة اشتغال الروائي تنصب حول موضوعة الهوية واشكالاتها الاجتماعية والنفسية من خلال اصطدام الابطال ولا سيما (عيسى/ هوزيه) بالواقع المعاصر والبحث عن علائق متشابهة تربطه بالشخصيات والمكان وتفاصيله.

رمزية الاسم والعنوان:

عند الوقوف على بينة العنوان كعتبة نصية نجد ان الرواية مشحونة بدلالة رمزية ابتداء من الشخصيات وقوفا عند العنوان (ساق البامبو) حيث يقف البطل عند مفهوم الانتماء للوطن عند من لفظتهم اوطانهم وكأنها اوطان طاردة فيلخص علاقته مع الوطن كعلاقة الاشجار بالتربة التي تنمو في ظلها فيقول البطل (عيسى).

(لو كنت مثل شجرة البامبو، لا أنتماء لها، نقتطع جزءا من ساقها.. نغرسه بلا جذور في اي ارض.. لا يلبث الساق طويلا حتى تنبت له جذور جديدة.. تنمو من جديد... في ارض جديدة .. بلا ماض .. بلا ذاكرة.. لا يلتفت الى اختلاف الناس حول تسميته، كاويان في الفلبين.. خيزران في الكويت.. او بامبو في اماكن اخرى...)[٩] فالمعنى الرمزي ليس لعنوان الرواية فقط بل حتى اسماء شخوص الرواية ولاسيما بطلها (عيسى) في الكويت، و(هوزيه) في الفلبين ، هي المعاناة نفسها التي عاشها (راشد الطاروف) والده داخل وطنه . في احضان عائلته ...اذ يؤكد الكاتب على ثيمة ان الوطن ليس مكاناً يحتوينا فقط بل هو مجموعة من العلائق الاجتماعية والفكرية التي تربط مجموعة من الناس وتحسسهم بالانتماء لهذه البقعة دون غيرها من الاماكن..

ولعلنا نقف عند انموذج اخر لعدم الانتماء الى الوطن في الرواية العربية ونجده في الرواية الاريترية (سمراويت) الحاصلة على جائزة الشارقة للابداع العربي 2012 ويقدم الكاتب لنا شخصية (عمر) الذي يعيش في السعودية ويزور (اريتيريا) الوطن للمرة الاولى .. ولكنه لا يعرفه

ولا ينتمي اليه وهو لا يحدد ملامحه ، فلقد استوطن المنفى حتى غدا وطنا ..فنراه يعلق ما بين الوطنين (وطن معاش، الوطن المنشود) فهو في منطقة بين (الانتماء واللاانتماء) لذا نراه يقول:

(في السعودية لم اعش سعوديا خالصا ، ولا اريتيريا خالصا، كنت شيئا بينهما شي يمتلك نصف انتماء ، ونصف حنين، ونصف وطنية، ونصف انتباه)[١٠]

وعلى الرغم من أن الكاتب عمد في تقنياته السردية الى تقديم السرد داخل النص بضمير المتكلم لما له من حميمية في تصوير الحدث الذي يؤديه البطل وهو الاشكالية في الهوية ، وتزعزع الانتماء بين وطنين ، احدهما جاذب والاخر طارد لمواطنيه.

ونلمح هذا الاغتراب عن الوطن في رواية (سمراويت) وهذه الرواية تقف عند حدود الازمة الثقافية الانسانية والعاطفية للفرد العربي لذاته المتشظية بين اكثر من بلد، وضياع حس الولاء لبقعة معينة دون اخرى ، فالهجرة تركت الفرد منقطعا عن جذوره غريبا عن وطنه حتى في ادق تفاصيله:

((انا اعرف هذه الاغنية .... بس ناسي اسم الفنان)

كنت فرحاً بهذا الاكتشاف لدرجة اني رفعت صوتي وكأن حديثي لم يكن موجها الى احمد فقط... لم انه جملتي تلك .حتى انفجر من حولي ضاحكين بطريقة هستيرية ، بعضهم يشير اليّ واخرون يعيدون كلامي لمن فاته .. سحبني احمد من يدي بطريقة متوترة الى جهة اخرى من القاعة:

(فضحتنا الله يفضحك...هذا النشيد الوطني)[١١]

فالتماهي في ترك الوطن وعدم التواصل مع معطياته يؤدي بالضرورة بالفرد الى الانقطاع والذوبان بذاته في الغربة حتى تصبح الغربة وطناً بديلا مع استمرار الوقت والالفة بين افرادها ..

<u>الانتماء:</u>

لقد طرحت الرواية العربية انموذجاً متميزاً لعلاقة الفرد بوطنه ولاسيما اذا كان الوطن يعيش احلك اوقاته واصعبها، فعند الازمات يظهر المعنى الحقيقي للمواطنة ويجسد الانتماء في اروع صوره، ومن هذه النماذج رواية (يامريم) لـ(غسان انطوان) وهي من الروايات التي وصلت الى القائمة القصيرة لجائزة البوكر العربية في عام (٢٠١٣) ويعالج الكاتب فيها اوضاع العراق السياسية والازمة الطائفية والامنية التي يمر بها ويصور ما لحق بالبلد من دمار وخراب فضلاً على وقوفه على مرحلة تاريخية مهمة من مراحل تاريخ العراق الا وهي مدة ما بعد الحكم الملكي فيصور لنا الكاتب طبيعة النسيج الاجتماعي العراقي، وما افرزه من نماذج بشرية كان ابرزها (يوسف) الشخصية المحافظة على انتمائها للوطن على العكس من الجيل الجديد المتمثل بشخصيتي (مها، لؤي) ،الساعيان الى الهجرة كوسيلة بديلة للبحث عن حياة هانئة.

والقارئ للرواية للوهلة الأولى قد يتصور انها تلقي الضوء على معاناة الاقليات الدينية ولاسيما (المسيحية) في العراق الا ان هذا الادعاء غير صحيح فهي تصور معاناة شعب بأكمله ويؤكد على ثيمة الانتماء للوطن والدفاع عنه ، وكما هي عادة (غسان انطوان) فانة يفتتح رواياته بنص من الانجيل، عادة مايعبر عن مضمون الرواية ويحيل الى انساقها الثقافية فنراه يفتتح عمله الروائي بالنص:

(جاء الى بيته ، فما قبله اهل بيته): انجيل يوحنا ١: ١١

وبالتأكيد هذا القول يؤكد أهمية الانتماء ولاسيما (البيت) فهو منبع لكل بيت ويصور مدى ضياع الفرد وغربته مع ضياع وطنه.

ونعرض لشخصيات الرواية في حوار يجري (باللهجة الموصلية) العراقية وهي لهجة سائدة لدى المسيحيون في العراق ولاسيما كبار السن (يوسف) الذي مضى على عمرة ثمانية عقود وعاش مراحل جميلة من تاريخ العراق المعاصر.

(–لا كفار ولا بطيخ .. هسة بس تستقر الامور الخير يرجع شوية شوية وهسة الوضع كثيراً أحسن من قبل ثلث اربع سنين ..)

" **شلون يرجع عمو ما تقلي شلون ؟ بعد كل هذا القتل والذبح والتهجير" عيني اكو بلدان وشعوب مرت بأوضاع أسوء وبعدين هم استقرت الامور هاي حركة التاريخ".**

" **عمو الله يخليك ؟ اطلع وشوف شلون قيتعاملون الناس بالشارع وبالشغل وبعدين قول ترجع الامور . مستحيل ترجع طبيعية .**"[١٢]

من اهم التقنيات السردية التي وفق الكاتب في توظيفها داخل النص الروائي هو المزاوجة بين اكثر من لغة داخل النص ولا سيما في تقنية المشهد الحواري وهنا يعقد الراوي (كلي العلم) عن طريق الحوار لوجهات نظر جيلين مختلفين في الآخر والتوجهات ما بين قديم (محافظ) وجديد يسعى الى الهجرة والبحث عن مكان آمن للعيش ، وكأن الجيلين وجهان لعملة واحدة تمثل العراق في وقته الحالي.

إن الالتزام نحو الوطن لا يعني تركه في اوقات الشدة واللجوء اليه في اوقات الرخاء ورغيد العيش بل هو قضية تتمحور حولها كل معطيات الفرد المتمثلة في حاضره ومستقبله ويمكن تصنيف الوطن هنا بأنه وطن جاذب لفئة معينة ، وطارد لفئة اخرى . ويمكن رصد شخصية (المنتمي) في رواية (سمراويت) وهي ششخصية سعيد الشخص الذي ناضل مع الثوار وفقد ذراعه في المعركة دفاعاً عن الوطن فيسعى الراوي الى تقديمه تقديماً سردياً:(**كنت متشوقاً الى رؤية هذا الرجل الذي لا تملّ امه الحديث عنه وعن نضاله في صفوف الثوار، كنت أرى فيه فرصة نادرة**

لفهم هذا الشغف بوطن لم تكن كل الظروف المحيطة تشي بامكانية ولادته. وكيف لشاب في مقتبل الوعي ان يكون مؤمناً بهذا الوطن / الخيال الى هذا الحد من العمق والتصميم)[١٣].

غالباً ما تتضمن الحكايات الشعبية الابطال والاساطير ، ولا سيما اذا كان الراوي احدى (عجائز البيت) وهكذا فكيف اذا كان بطلاً حقيقياً دافع عن وطنه وضحى بنفسه لأجله . فالانتماء لقضية الوطن لا يعني عدم التضحية ودفع الاثمان الباهظة لذلك بل القدرة على فعل الامر هي المعيار للتفاوت ما بين افراد المجتمع.

وطن في الغربة:

ونعني بذلك ان يجد الانسان ملاذاً مادياً ومعنوياً خارج وطنه الام الذي يحمل اوراقه الثبوتية وينتمي اليه قانوناً وعرفاً. ومشكلة الاوطان البديلة (الجاذبة) انها اماكن مغرية للعيش ولا سيما للفرد العربي مع كل التناقضات والظروف السياسية والاقتصادية التي تشجع على الهجرة. فأمست هذه المشكلة مشكلة عامة لم يسلم منها وطن ما . ولقد عالج الادب الروائي العربي هذه المشكلة مع تصوير الاحداث والاسباب الموجبة لها ولكنها على الاغلب معالجات فردية تنتهي بانتهاء الرواية . نجد انماطاً من الاوطان الجاذبة في رواية (ساق البامبو) وتشغل دولة الفليبين (الوطن البديل) مساحة كبيرة من الرواية للذين نبذتهم اوطانهم ولم تحتضنهم ولا سيما ممن يولدون من اباء غير مواطني تلك الدولة .

ونجد شخصية (عيسى) بطل الرواية بعد رحيله الى موطنه (الكويت) واصطدامه بالواقع ونبذ عائلته له وصفه دخيلاً قادماً من الخارج فصبحت لديه قناعة ان الاوطان الجاذبة لا تشترى بالأوراق الثبوتية وان الانتماء هو انتماء روحي اكثر منه انتماء رسمي لذلك قرر العودة الى وطن احتضنه رضيعاً وانشأه رجلاً وهو (الفليبين) موطن والدته الاصلي فيصور حالة التخبط والحيرة في الغربة بقوله:(**من كان بوسعه ان يقبل بأن يكون له اكثر من ام سوى من تاه في اكثر من اسم ... اكثر من وطن... اكثر من دين...؟)**[١٤]

ولذلك يفتتح الكاتب فصله الاخير من الرواية بهذه المقولة: **(ان لفظت الديار اجسادنا ..... قلوب الاصدقاء لأرواحنا أوطان" لـ(هوزيه منيدوزا)**[١٥]

ولا يقف تشظي الابطال بين الاوطان على (عيسى) (الكويتي، الفلبيني) الذي وجد وطنه البديل في موطن والدته ، ولكن يمتد الامر ليشمل (ميرلا) ابنة خالته للبطل (عيسى) التي انجبتها امها من حملها من احد الاوربيين لذا نراها تكره كل ما يمت الى اوربا من صلة فلا ترى سوى الموت والعهر لذا نراها تتبنى مقولة: **(الموت هو العلاقة الاولى للحضارة الاوربية عند ادخالها الى المحيط الهادئ.... هل هي نبوءة يتحقق لكل من يقترب من الاوربيين؟ لست اتحدث عن الموت**

الذي بعينه ويزال في سنوات الاحتلال بل موت اخر عندما احتل الاوربي المجهول جسد آيدا تركني بذرة في احشائها ثم رحل)[١٦]

إن التنويع بين الاساليب الفنية في تقديم الشخصية هي سمة مميزة في اي عمل روائي وهنا مزج الكاتب ما بين تقنيتي (السرد والرسائل) في تقديم شخصياته وعدّها وسيلة للحوار وابداء وجهات النظر المختلفة بين الشخصيات ولاسيما فيما يتعلق بالانتماء للوطن ... فشخصية (ميرلا) هي شخصية منسلخة عن جذورها ووطنها الذي تنتمي اليه (الوطن الطارد) لتجد بديلا جاذبا (الاوطان الجاذبة) وهو (الفلبين) موطن والدتها الاصلي، وقد تكون هذه النقطة المشتركة بين ذوات الرواية (عيسى، ميرلا) مما جعل ازمة الذات والبحث عن هوية بديلة . مهمة مشتركة لكليهما وكان اقترانهما هو الحل الامثل لتأسس لوطن بديل يضمها معا.

غربة اللغة وثنائية الأنتماء:

إن اللغة تعبر عن الهوية لأنها الوسيلة التي يعبر بها الأفراد عن أفكارهم وخطاباتهم والنصوص التي يتناولونها والقيم التي تحرك سلوكاتهم بما يولد لديهم الاحساس بالانتماء الى شعب معين، والارتباط بوطن معين والتعبير عن مشاعر والاعتزاز والافتخار بهذا الانتماء والارتباط . كل هذه العناصر مجتمعة تشكل قوام الهوية. والروح التي تسري في معظم انتاجها الحضاري[١٧].

ويمكن أن نلحظ تعدد اللهجات داخل النص الروائي بحسب الانتماءات الاقليمية لبلد ما والتي تتراوح ما بين (اللهجة العراقية ، اللهجة المصرية، اللهجة السورية).وقد يلجأ الكاتب الى بديل للابتعاد عن المحلية في التعبير والسعي وراء العالمية في كتاباته، فلا يجد بديلاً غير (اللغة الوسطى) والتي تكون وسطاً ما بين العامية والفصحى في التعبير ولا سيما في الحوار .

ويمكن رصد غربة اللغة والشعور بعدم الانتماء لها في رواية (سمراويت) اذ يصطدم البطل الارتيري (عمر) عند سفره الى ارتيريا باللغة (التغرية) وهي لغة البلد الرسمية وهو احد مواطنيها لكنه لا يتقنها بل يتقن (اللغة النجدية) وهي اللغة العربية المحكية عند اهل الحجاز ولا سيما في مدينة (نجد). وهنا تتشظى الهوية والانتماء اللغوي للبطل فهو ينتمي الى لغة بديلة معاشة تفرض نفسها على شخوص الرواية ، ولا سيما الاجانب الوافدين الى البلدان العربية كل ذلك بسبب ولادتهم في اوطان عربية بعيداً عن اوطانهم الاصلية. فيحدث هذا الانقطاع اللغوي والتواصل ما بين الوطن الام والفرد المهاجر .. ونلمس ذلك في حوار البطل مع احدى شخصيات الرواية:

((تقرأ اريتيريا الحديثة ها)؟

(نعم عثرت على النسخة العربية بصعوبة!

(هنا في اسمرا تحظى نسخة التغرنية برواج اكبر

(هذا يعني انني لو كنت في مصوغ مثلاً لن اعثر على النسخة التغرنية بسهولة؟
(بل ستكون محظوظاً لو وجدت النسخة العربية))[١٨]
وقد تتحول اللغة الى وطن وهوية للشخص حتى وان لم يكن من مواطني ذلك البلد بمجرد اتقانه للغتهم ولهجاتهم يصبح من الصعوبة بمكان التعرف على ملامحه اللغوية أو القومية فيصل الى حد(التماهي) مع اللغة:

((شكلك جداوي)

كثيراً ما سمعت هذه الملاحظة بمجرد ان انطق لم تكن جدة لتحتاج اكثر حتى تتبدى في لغتي وفي نبرة صوتي بل وفي ابتسامتي.....

(مين فين الاخ ؟)

(من النزلة)

مر عام كامل وانا اجد هذه الاجابة مكتملة الاركان فهي تعرض جغرافيتي وتاريخي وحتى مزاجي لأن (عيال النزلة ذوق) كما يأتيك الرد حين تعرف بنفسك)[١٩]

فالعلاقة المميزة للغة او (اللهجة الدارجة) يمكن ان تنبأ عن المكان الذي ينتمي اليه المتحدث من طبيعة المفردات المستعملة في حواره كما نجد ذلك التأثير (للهجة الموصلية) في (رواية يامريم) وتفرد الطائفة النصرانية بالحديث بها جعلها هوية محلية لانتمائهم الوطني والطائفي (الديني) لأنهم اقلية يعيشون في بلد مسلم ، لذا نرى الكاتب قد ادرج الحوار باللهجة التي يتحدث بها (النصارى) في العراق: **(شلون تظل بوحدك بهاالبيت الكبير؟ زين ومنو يدير بالو عليك بعد ما تروح مها؟**

(ليش انا ما كنت بوحدي قبل ما تجي مها ؟ لا تخافين عليّ ، كل شيء ما يصير بيّ)

(شلون يا أخوي وهالقسان الي قيقتلوهم والكنايس اللي قيهجمون عليها؟)[٢٠]

وقد تمثل اللغة عاملاً طاردا للشخصية الروائية فنجد شخصيات مغتربة عن واقعها المعاش ويمكن اقتناص هذه الثيمة من التعبير الكلامي للشخصية اذ تلجأ – على الاغلب – الى لغة بديلة للهروب من الواقع ونلمس ذلك في رواية (ساق البامبو) اذ تنفرد بتقديم لغة الشخصية عن طريق تقنيتي (السرد والحوار) اذ يرسم الكاتب ملامح شخصية (خولة) اخت (عيسى) وهجرانها للغة الام:**(لو انني اقرأ العربية " رن هاتفها النقال . وضعت السماعة على اذنها وشرعت تتحدث بالانكليزية: قلت لها حين فرغت من مكالمتها " لماذا تتحدثين الانكليزية" اجابت على الفور " احبها" في المحادثة اكثر من العربية انتهزت الفرصة لاستعراض معلوماتي :**

- **يقول خوسيه ريزال ان الذي لا يحب لغته الام هو اسوأ من سمكة نتنة))**[٢١]

نخلص مما تقدم، أن الاغتراب او الانتماء اللغوي غير مرتبط بوطن ما بقدر ارتباطه بعوامل أخرى مثل (الدين، القومية، الطائفة، لغة المجتمع) مما يسبغ على اللغة طابعا خاصا ومميزا يمكن من خلاله التعرف على الهوية وطبيعة الانتماء من عدمه لدى الشخصية المتكلمة بوساطة اللغة التي تعد اداة كشف عن المحكي .

الهوامش:

[١]– مجلة رهانات ثقافية :ع ٢٠٠٨

[٢] مجله رهنات ثقافيه :ع ٢٠٠٨

[٣]– قلب الظلام : جوزيف كونديرا، ت/ سمير بارد ،ط١، بيروت،١٩٩٨: ١٢٥

[٤]– نهايه اللعبه ومسرح القب ،تولت بريخت،نقلا عن محمد غنيمي هلال،في النقد المسرحي ،دار النهضة ،١٩٥٥،ص١٦٤

[٥]– الهوية والدين،عبد الصمد الديالمي ،مجلة افاق ،ص٧٩

[٦]– اغتراب المصطلح وازمة مفهوم وتغريب هوية، لحسن دحود ، جامعة ورقلة (الجزائر) مجلة مقاليد، ع١، جوان ٢٠١١، ص ١٦٤.

[٧] – ساق البامبو، سعود السنوسي، الدار العربية للعلوم ، نها ثروت، ط١: ٧٤–٧٥، ٢٠١٢

[٨]– ساق البامبو، سعود السنوسي، الدار العربية للعلوم ، نها ثروت، ط١، ، ص٢٢٤، ٢٠١٢

[٩] – ساق البامبو: ٩٤

[١٠]– سمراويت حجي جابر، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء– المغرب، ط٢، ٢٠١٢: ١١

[١١]– سمراويت : ٢٥

[١٢] – يا مريم ، سنان انطوان صدرت عن دار الجمل ، عام ٢٠١٢: ٢٦

[١٣] – سمراويت: ٣٣.

[١٤] – ساق البامبو ..١٠٢

[١٥] – نفسه : ٣٩١.

[١٦]– نفسه :٣٢١

[١٧]– ينظر : دوقان عبيدات ، اين نحن من العولمة ، المكتبة الوطنية ، عمان، (د. ط) (د. ت) : ٣١

[١٨] –سمراويت .. ٤٣–٤٤

[١٩] – سمراويت :٨٥

[٢٠] – يامريم ..٩٢.

[٢١] –ساق البامبو .. ٢٥٧– ٢٥٨

المصادر :

[١]–اغتراب المصطلح ازمة مفهوم وتغريب هوية لحسن دحود جامعة مقالية (الجزائر) مجلة مقالية، ع١، جوان ٢٠١١

٢– الهوية والدين،عبد الصمد الديالمي ،مجلة افاق

٣–اين نحن من العولمة ، دوقان عبيدات، المكتبة الوطنية ، عمان، (د. ط) (د. ت)

[٤]–ساق البامبو، سعود السنوسي، الدار العربية للعلوم، ط١، ٢٠١٢

[٥]–سمراويت حجي جابر ،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء– المغرب،ط١١:٢٠١٢.٢

[٦]–قلب الظلام :جوزيف كونديرا،ت/ سمير بارد ،ط١،بيروت،١٢٥:١٩٩٨

[٧]–مجله رهنات ثقافيه :ع ٢٠٠٨

[٨]–نهايه اللعبة ومسرح القب ، تولت بريخت، نقلا عن محمد غنيمي هلال،في النقد المسرحي ،دار النهضة ،١٩٥٥

[٩]–يا مريم ، سنان انطوان صدرت عن دار الجمل ، عام ٢٠١٢